

- ٦٤٠٤ -

ماربع مية معمورا يطيف به
غيلان أبهى ربي من ربعها الخرب

ولا الخدود وان أدمين من خجل
اشهى الى ناظري من خدها الترب (٢٦)

قال : ثم رحل الى حصن حارم فحصره ، فأنفذ من لم يحضر
المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما يسألون الصلح ، ويبذلون له
المناصفة على ولاية حارم ، فأجابهم الى ذلك ، لأن عسكره كان قد
كثر فيهم الجراحات والقتل ، فأراد أن يسـتـريحوا
ويريحوا ، فهادنهم وعاد عنهم وقد ايقن المسلمون بالشام بالأمن
وحلول النصر ، وسيرت البشائر الى البلاد ، وأعلنت في الحاضر
والبادي .

ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه

في سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود
بهمذان ، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة ، وكانت ولايته
ما تقارب أربع عشرة سنة ، وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير
الاحتمال ، ووزر له أبو القاسم الأنساباني ، وهو الذي سعى
بالعزيز المستوفي حتى قبض وسلم الى بهروز شحنة العراق فسجنه
بتكرير ثم قتل سنة ست وعشرين .

ولما توفي السلطان محمود ، طلب السلطان مسعود بن محمد
السلطنة ، وطلبها أخوه سلجوق شاه بن محمد ، والملك داود بن
السلطان محمد _____ ، وكان
بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين - قدس
الله روحه - فيها اثر وفعل ، ونترك الباقي انه وخارج عن
غرضنا .

ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود والحروب الحادثة الى ان ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير الأنساباني وأتابك سنقر
الأحمديلي على (تولية) ولده الملك داود بن محمود ، وخطبوا له في
جميع بلاد الجبل وأذربيجان ، وساروا الى زنجان .

وكان السلطان مسعود بكنجة - وهي له - فلما بلغه موت أخيه
سار الى تبريز فملكها ، فسار إليه الملك داود فحصره بها ، ثم أفرج
عنه حتى خرج منها وقصد بلاد الأمير قفجاق ، فاجتمعت العساكر
عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو في
عشرة آلاف فارس ، وسار قراجه الساهي صاحب خوزستان
وفارس إلى بغداد ، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان
محمد ، وقراجه يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع
معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف
جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعودا الى
بغداد ونزل بدار السلطنة ، وأرسل السلطان مسعود الى الشهيد
عماد الدين - تقديس الله روحه - يستميله ويستنجده ، فأجابه الى
ما طلب منه ، وسار عن الموصل الى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع
بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية
الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجه وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى
تكريت ، عبر قراجه الى الجانب الغربي ، وأسرى الى تكريت في
عسكره جميعه ، ولم يخالف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد
يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل تكريت في يوم ليلة ، فواقعه
الشهيد فهزمه قراجه وأسر أكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة الى الموصل فجمع العساكر وأنفق الأموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق شاه مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك في عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه .

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر الى نواحي همذان - وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد ليرتبه في السلطنة - فلما اتصل خبر وصوله ارسل الخليفة المسترشد بالله الى السلطان سنجر ، فأقام وترددت الرسل واستقر الصلح على ان تكون السلطنة ، لمسعود ويكون سلجوق شاه ولي عهده وعاد السلطان مسعود الى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر اخوه سلجوق شاه في خدمته .

وسارا جميعا الى قتال عمهما السلطان سنجر ، وألزمهما المسترشد بالله بالمسير معهما فامتنع ، فتهدهده قـرأجة الساقى ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر الى الشهيد يأمره ان يقصد بغداد هو ودبيس بن صدقة ملك العرب - وكان دبيس عند الشهيد على ما نذكره ان شاء الله تعالى - ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه ابنا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعللا على المقدمة يرزقش بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من اكابر

الأمراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بداي مرج ، فرجعوا الى كرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قماح ، ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعودا ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر فالتقيا قرب الدينور ، وكان العسكران كالبحريين كثرة وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماح ، وعلى يسرته خوارزمشاه ، وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجة الساقى ، والأمير قزل ، وكان قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن في عسكر السلطان مسعود ، فلما التقى العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهمز ، واختلطت العساكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوما مشهودا ، وحمل قراجة الساقى على القلب - وفيه السلطان سنجر في عشرين الف فارس ، هم اعيان العسكر وشجعانهم وبين يديه الافيلة - فلما تقدم الى القلب ، حمل طغرل وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار في الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل أكثر من أصحابه وأخذ اسيرا ، وانهمز السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين أوزبك في المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه الى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه واستدعاه اليه ، فحضر عنده وعاتبه على اقدمه عليه ، فاعتذر وذسب ذلك الى ايتكين الخادم ، فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالسير الى كنجة . فحكى لى والدي عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال : أحضر السلطان سنجر قراجة الساقى وعاتبه على فعله ووبخه ، وقال له : اذا حاربني اولاد اخي فليس يبعد ان يطلبوا السلطنة ، وأما انت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكل الناس على قتالي ، أكان يصير لك من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال : كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون اولاد أخيك بحكمي ، أقيم من أريد وأعزل من أريد . فغضب

السلطان سنجر منه وامر بقتله ، فقتل ، وأمر ان يشق صدره عن فؤاده فما رأى اكبر منه ، فألقى عليه حجرا كبيرا فلم يبعجه ، فقال : من يكون هذا فؤاده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطغرل ابن اخيه بالسلطنة في همدان ، واصفهان ، والري ، وسائر بلاد الجبل .

وجعل في وزارته ابا القاسم الانساباني وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد الى بغداد وهزيمته

ولما سار المسترشد باله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام بخانقين ينظر ما يكون من مسعود ، فلما سمع بهزيمته وقتل قراجه ، رجع الى الدسكرة ، فأتاه الخبر بوصول اتابك الشهيد عماد الدين زنكي ودييس بن صدقة الى بغداد ، فأسرع العود اليها ، وعبر الى الجانب الغربي فيمن معه من العساكر ، وكان فيهم كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين وخمسائة ، فحكى لي والدي عن جماعة من أصحاب الشهيد ممن حضر المصاف ، قالوا : اشتد القتال وظهرنا على عسكر الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت عند المعركة ، وخرج المسترشد باله منها راكبا بسواده وبيده سيف مسلول ، فكلهم قالوا لما رأيناه : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد السلاح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الثبات فانهزمنا ونحن لا نعقل ، وكان ابتداء الهزيمة من ديبس فانه قصد نحو الحلة ، وجمع جمعا وسار إليها ، وبها جمال الدولة اقبال المسترشدي ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ديبس أيضا .

ذكر السبب في مصير ديبس عند الشهيد رضى الله عنه

كان ديبس بن صدقة بن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد (٥٣) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله نفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه الى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيرا إبعاده عن العراق .

وكان شريرا خبيث الطوية ، وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقية فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، عازما على قصد الشام ، الى حصن صرخد ليملكه . وسبب ذلك ان صرخد كانت بيد امير اسمه مكتوم ، فتوفى وخلف زوجة حدثت نفسها انها تملك الحصن ، فقال لها بعض اصحابها : إن هذا لا يتم لك الا برجل يتزوجك من الأمراء الاكابر ، وحسن لها الاتصال بديبس ، فأرسلت اليه تدعوه ليتزوجها وتسلم إليه صرخد . فسار إلى الشام فلقية سوء نيته . فضل في البر فأسره قوم من بني كلب ، وسلموه الى تاج الملوك (بوري) بن طغديكين أتابك ، صاحب دمشق ، فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهدهه أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه اليه . فلما صار عنده ، جازى اساءته باحسان ، وأنعم عليه وخوله واعطاه المال والخيام والسلاح والخيل وكل ما يحتاج اليه الملوك ، وبالغ في اكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير ديبس إلى دمشق بالاسترشد بالله ، أرسل الى تاج الملوك مع سيد الدولة بن الأنباري صاحب ديوان الانشاء ببغداد ، يطلب منه ان يسلم ديبسا اليه ، فلما وصل دمشق وعلم بمصير ديبس عند الشهيد ، تسمج وذكره بما يكرهه ، فاتصل ذلك

بالشهيد - وكان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار - فامتعض لذلك ، وأرسل الى البرية وشحنها بالرجال ، وأمرهم بأخذ ابن الأنباري وحمله ، فلما عاد أخذ بنواحي الرحبة وحمل الى الشهيد فحبسه بالموصل ، فأرسل الخليفة المسترشد بالله يشفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده ، أرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها ، ولم يعلم من أحواله شيئاً البتة .

وفي هذه السنة - اعني سنة ست وعشرين وخمسمائة - ملك الشهيد قلعة بهمرد من بيار بكر . فانظر الى هذه الهمة ، قد كان في هذه السنة من الامور العظيمة واختلاف السلاطين وانهمزامه دفعتين . ولم يشغله ذلك عن زيادة في ملكه ، بمثل هذا الحصن العسير .

ذكر حصر المسترشد بالله امير المؤمنين الموصل

في ربيع الاول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد الى الرحبة ، فنزلها وجمع العساكر ، وكان قد قصده عدة أمراء من العساكر السلطانية للخلف الواقع بينهم ، فقوي بهم المسترشد واستبد بالعراق وجبسى الأموال ، وأرسل الامام ابا الفتوح الاسفرائيني الواعظ الى الشهيد ، فأغظ له في القول ، فأهانته غاية الاهانة وعاد الى المسترشد بالله ، فعند ذلك سار الى الموصل في ثلاثين الفا ، فلما بلغ الخبر إلى الشهيد ، رحل عن الموصل في بعض عسكره ، وترك الباقي بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد

بظاهر سنجار ، فحدثني والدي قال : نزل المسترشد بالله على الموصل في عسكر عظيم ، وحفظها نصير الدين احسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضي . وكان الشهيد يرسل سرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة محاصرا لها نحو ثلاثة اشهر فلم يظفر منها بشيء ، ولم يظهر له من العسكر بالبلد ما يدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضه ، فقيل كان سبب عوده أن السلطان مسعودا أرسل إليه مع نصر الخادم - أمير الحاج - يشير بالعود ، فعاد وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد وقيل غير ذلك ، وبالجملة فلورأى أمارة ظفر وفتح لم يرحل. وكان عوده في الشبارة ورأسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع الحميدية

وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، استولى الشهيد رضي الله عنه على سائر قلاع الاكراد الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغير ذلك وسبب قصدها أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته ، ولم يعترضه في شيء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده في جنده وجموعه ، وأمده بالاقوات وغيرها مما يحتاج اليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديدا إلى أن فتحت في هذه السنة ، وأطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فانهم كانوا معهم في خطة خسف.

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد الى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها واستوزر ضياء الدين بن الكفرتوثي . ثم رحل

عن آمد الى الشام فحصر مدينة دمشق . وفيها توفيت والدة الشهيد بالوصل .

في ذكر قتل امير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد .

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقد ضعف امره وقوي امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل . فـ راسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على اخيه طغرل ، فاجيب إلى ذلك ، وأمدّه بالأموال والرجال فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لان عمه السلطان سنجر ، كان يقوي أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع اخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الامر ثانيا وكرر ذلك ، فلم يتحرك ، فأرسل إليه أخيرا جاولي القسيمي ، شحنة بغداد ، مضايقا له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة ان يلقي خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الامر ، عظم عليه ونادى في العسكر ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم في التجهيز ليرحلوا ، وان قد ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل . وكانت وفاته في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فأسرع السير الى همذان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد . ثم وقع الخلاف في عسكره واستودش منه جماعة من الأمراء منهم الأمير قزل آخر ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيني والي همذان ، وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه في عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، واقاموا ينتظرونه وكانوا في سبعة آلاف فارس ، فسار اليهم السلطان مسعود جريدة في ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، وولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم

يرنقش بازدار ، وقزل آخر ، وسنقر الخمار تكييني ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعده النصر والمساعدة عن انفسهم وعن جماعة من أكابر الامراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم الى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها في شعبان من هذه السنة . واتاه في الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا في سبعة آلاف فارس ، واستخلف في بغداد جمال الدولة اقبال في ثلاثة آلاف فارس ، وراسل أصحاب الاطراف ، المسترشد بالله يبذلون له الطاعة ، فتريث في الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل اصلاحهم في نحو ثلاثة آلاف فارس ، فصار في خمسة عشر ألفا ، وأرسل إليه أتاك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة الى داي مرج ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعبع الخليفة عسكره ، وكان في الميمنة يرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكييني ، وبرسق بن برسق والغلمان الدارية . وكان في ميسرته جاولي وغيره . ووقف الخليفة في القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، ففدرت ميسرة الخليفة ومالت الى السلطان ، وأحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر في عسكر الخليفة ، وأفضى الأمر إلى أن أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض ايضا الوزير شرف الدين الزينبي ، وقاضي القضاة ، وكمال الدين بن طلحة صاحب المخزن ، وابن الانباري كاتب الانشاء ، وخلق كثير ورفعوا الى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما في العسكر .

وأنفذ السلطان (بك ابيه المحمودي) (٢٨) شحنة إلى بغداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثارت الفتنة ببغداد ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنة ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقي الخليفة المسترشد بالله في القبض إلى سادس عشر ذي القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل الى السلطان

مسعود ، فخرج الى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة أربعة عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فجرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، واخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكينه ، وإنسان هاشمي . ووقع الخبر في العسكر ، فركبوا في السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب أربعة عشر . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه الى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سنقر الاحمديلي .

وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد - وهو الامير بك ابيه - ، يأمره بالبيعة للأمير أبي جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة .

وحضر بيعته عشرون رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدي بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله أخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . وتلقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

قال . كان مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة وأشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما شجاعا ، مقداما ، فصيحاً .

وتمكن في خلافته تمكنا عظيما ، لم يره احد ممن تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي بالله ، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ،

ولم يزالوا كذلك الى ملك الديلم واستيلائهم على العراق ، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الديلم ، فلما ملك السلجوقية جدوا من هيبة الخلافة ماكان درس لاسيما في وزارة نظام الملك ، فانه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها ، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العمداء وضمنان البلاد ، ولم يكن للخلفاء إلا اقطاع يأخذون دخله ، وأما المسترشد بالله فانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الاوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش وباشر الحروب . وقد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله أمير المؤمنين إلى الموصل مع أتاك

في سنة ثلاثين وخمسائة ، سار الراشد بالله الى الموصل صحبة أتاك عماد الدين زنكي ملتجئاً إليه . وكان سبب ذلك ، أن العساكر السلطانية اختلفت على السلطان مسعود ، وكذلك أصحاب الأطراف ، وتراسلوا في الاجتماع على قتاله وإقامة سلطان يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد ، فسار أتاك الشهيد من الموصل الى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود في عسكر أنزبيجان ، وورد إليها يرزقش بازدار في عسكر قزوين . وكان مع الملك داود الأمير عنتر بن أبي العسكر الحلواني يدير امره ، فلما اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود ومحاربتة ، فأجابهم الى ذلك ، وكان وزيره حينئذ جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صدقة الذي صار وزيراً لأتابك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على العزم في صفر سنة ثلاثين وخمسائة . وظهر من الراشد بالله تنقل في الأحوال ، وتلون في الآراء ، وقبض على جماعة من أعيان اصحابه ، منهم : استاذ الدار

ابو عبد الله الحسين بن جهير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدي ،
واراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، فركب في موكبه إلى
أتابك الشهيد ، فنزل في خيمه ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف
مقابل التاج ، وأرسل يشفع في الذين قبض عليهم الراشد شفاة
تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا إقبال ، وسلم إقبال المسترشدي إلى
الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى
خيمه أكرمه واحترمه وأحسن إليه ، ولم يجازيه على ما كان منه قديما
من عداوته . ثم إن قاضي القضاة الريني خاف من الخليفة أيضا ،
فالتجأ إلى الشهيد فأمنه وأحسن إليه ، وقرر مع الملك داود أن
يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره في ربيع الآخر .

ثم ورد الخبر ، أن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل إلى
واسط في جمادى الأولى في عسكر كثير ، فأنحدر أتابك الشهيد إليه
ليحاربه ، فوقع الخلاف بين سلجوق شاه وبين أتابك البقش ،
وراسل البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فمال إليه ، وسار
هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد وأصلح أمر الوزير ومعه البقش وجماعة الأمراء ،
فازداد أتابك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لا يصدرون إلا عن أمره
ورأيه .

ثم عاد الشهيد وأصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع
الراشد ، وإعادته إلى وزارته . وكثر الفساد في العراق ، وتطرق
المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا الحریم الظاهري ، وشارع
دار الرقيق ، وكثيرا من بلد دجيل ، وبعض طريق خراسان ونهبت
الاموال أيضا ببغداد علانية لآمانع لهم من ذلك .

ثم أن السلطان مسعودا سار نحو العراق ، فبلغ الشماسية في
عسكر كثير ، فأراد من ببغداد من الملوك والأمراء قتاله ، ثم خافوا لما
راوا ما عندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذي معولهم عليه ، وتقدم

السلطان مسعود إليهم فحصرهم نيفا وخمسين يوما ، فتسأل
عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العود إلى بلد الجبل ،
فوصله بالنهروان طرنطاي صاحب واسط ، واخبره بما معه من
السفن والمقاتلة في الماء ، فسار السلطان مسعود اليها وعبر فيها
تحت بغداد ، وعبرت العساكر التي كانت ببغداد الى الجانب الغربي
لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم الى بلده
وولايته .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتاك الشهد
ملتجئا إليه ، ومعه وزيره ابن صدقة وجماعة من الخدم والآتراك
وسار معه إلى الموصل ، واستقر السلطان مسعود ببغداد في ذي
القعدة .

وأقام أتاك الشهد للخليفة كل ما يريدوه ، وبالغ في ذلك ، وأرسل
إليه من الأموال والعروض والآلات مالا حد عليه . وأقام بالموصل
إلى أن سار على مآذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفي
لأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنهما اجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتاك الشهد
ودخلها السلطان مسعود عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره
بالخلافة ، ووافق على ذلك الأمراء وأرباب المناصب فاحضر القضاة
والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضرا شهدوا فيه بما أوجب خلعه ،
فافتى الفقهاء أن من هذه صفته لا يصلح للخلافة وحكم القاضي ابن
الكرخي قاضي الحريم بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل السلطان مسعود عن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف
الدين الزينبي ، بابي عبد الله بن المستظهر بالله ، وأشار غيره

بالعدول عنه ، وقال : انه رجل كبير قد جرب الامور وعرفها ، وان من الرأي للسلطان ان يبايع فتى صغيرا ليست له تجربة ولا سن عليه ، (ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) ، فوقع الاتفاق على أبي عبد الله ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفي ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتفي لامر الله ، فلما استقر في الخلافة ، أرسل إليه السلطان مع وزيره كمال الدين الدرگزيني ، يسأله ما يحتاج إليه ليقام به ، فقال للوزير : ما دري قدر ما نحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة - مع قريبا منا - من بكرة إلى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه في غيره شيء ، فانظروا حينئذ ما وراء هذا فقوموا لنا به ، فعاد الوزير وقال للسلطان : قد كان الرأي في العدل عن هذا الرجل ، ولكن الامور مقدره ، وقد رأيت من هذا الرجل ما دل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق من الحاضرين إلا من استحس ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشهيد ، أرسلوا رسولين إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز ، فاما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأما رسول الشهيد فإنه أكرم كثيرا ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فحكى لي والدي عنه انه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لي تبايع امير المؤمنين . قال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وانتم والناس قاطبة في شرق الارض وغربها ، وقد علمتم ما قيل في من يبايع آخر ، وطال الكلام وعدت الى منزلي ، فلما كان الليل ، جاءتني امرأة عجوز سرا ، وبلغتني عن المقتفي لامر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ما كان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صالحة من التحف والمال ، قال ، فقلت : غدا يظهر أثر خدمتي . فلما كان الغد حضرت ، وقيل لي في أمر البيعة فقلت : إن الراشد له في اعناقنا بيعة ، ولا يجوز الذكث إلا بما يوجب خلعه ، وانا فقيه لا يجوز لي

فعل ماينا في الشرع ، فتذبّون ما يوجب خلعه حتى أخلعه ، وأبايع عني وعن صاحبي ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رأه وشهد به الشهود ، خلع الراشد وباع المقتفي لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار إليه خلافة الله في أرضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ويجمع عليه الجموع ، ونحن فلا بد لنا من هذا الدعوى نصيب ، فرفع قوله إلى الخليفة (٣٠) فامر الخليفة أن يجري في اقطاع الشهيد من خاصه صريفيين و« درب هارون » ويزاد في القابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الاطراف ، ان يكون له في العراق اقطاع . واستحلف القاضي كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عملاً في نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتاك الشهيد يأمره بإخراجه عن بلده ، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همذان ، واجتمع هو والملك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان اليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس وانهزم الراشد وقصد اصفهان ، فقتله الباطنية سابع وعشرين رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن باصفهان .

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وما فعله الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، فخافه الناس خوفا عظيما ، وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل ، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها - وهي على مرحلة من حلب - وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان .

ثم سار عنها إلى شيزر - وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة - فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من في الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب عنها ، وكانت حينئذ للامير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني المنقذي ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجده - وكان على عزم المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه - فجد السير في عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل سرايا تنخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار ، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقي شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرتم أخذتم لشيزر وغيرها ، وأن ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم - ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم - فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهوذوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصحروا له ، فحينئذ ترون من كثرة عساكره ما يعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يرسل افرنج بالشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم انه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التي بأيديهم منهم . وكان يرسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان افرنج معه ، فاستشعر كل واحد من افرنج والروم من صحبتته ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما ، وترك المجانيق والآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم في ساقه العسكر فغذم منهم وقتل واسر ، واخذ جميع ما خلفوه ورفعته الى قلعة حلب (وكفى الله المؤمنین القتال) (٣١)

- ٦٤٢١ -

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا ان الروم ان
ملكوا حصن شيزر ، لا يبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيما بمدينة حماة
لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ،
وممن مدحه المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي فقال من قصيدة
اولها :

بعزمك أيها الملك العظيم
تذل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها
الم تر ان كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
ودان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم

وأبصر في المفاضة منك جيشا
فأحرن لا يسير ولا يقيم

كأنك في العجاج شراب نور
توقد وهو شيطان رجيم

- ٦٤٢٢ -

أراد بقاء مهجته فولى

وليس سوى الحمام له حميم (٣٢)

وهي طويلة .

ومن عجيب ما يحكى في هذه الحادثة ، ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الامير مرشد بن علي - أخو صاحبها - وهو يذسخ مصحفا فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من انزلته عليه ، إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفى بعد أيام ، ونزل الروم بعد وفاته .

ولما عاد الروم الى بلادهم ، سار أتاك إلى حصن عرقه - وهو من اعمال طرابلس - فحصره وفتح عذوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما .

وفيهما توفي القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري ، قاضي الممالك الأتابكية . وكان أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهر زور

وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال من يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني

وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم ، يرون طاعته فرضا حتما ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده التركمان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتاك الشهيد عنه

ما اقتضى أن يقصد بلاده ، فحذره أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ، علما منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير ، وأنه إن ضيق عليه سلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاورا لولاية الشهيد فلم يرجع عن عزمه ، وسير إليه عسكريا كثيفا ، فجمع قفجاق من التركمان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده من الكثرة ما سد بهم الفضاء ، وتلقاهم عسكري الشهيد وقاتلهم ، وصبر عسكريه وتابعوا الحملات على التركمان حتى هزموهم واستباحوا عسكريهم ، فمضوا منهزمين لايولي أخ على أخيه ولا والد على ولده ، وسار العسكري عقب الهزيمة وبخلوا بلادهم ، فملكوا شهر زور وغيرها من البلاد وأضافوها إلى مملكته ، وأصلح الشهيد أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام بل لزال ظاعنا إما لرد عدو يقصده ، وإما لقصده بلاد عدو ، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر (٣٣) السروج أثر عنده من وثير المهاد ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد وأسد ، وأصوات السلاح الذي سمعه من غناء القينات ، وإلقاء القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما ذكرته وأذكره دليل على صحة ذلك .

ذكر حصار دمشق وبعديك

وفي هذه السنة أيضا ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد في جنوده بعد ما ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغديكين .

وكان محمد محكوما عليه ، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جده طغديكين ، وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهر زوري بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداثها وزناطرتها ،

واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلوات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتاك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأياً ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، وربما كثر المقاتلون لنا والمحاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلوننا على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره ، ومن العجب أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي وأتاك يحاصره ، فضبط أمر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك وأحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه - وكان صغيراً - فمشى الحال بتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين إلى دمشق ، أقطع بعلبك لمعين الدين أنر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحضرها عدة شهور فملكها عنوة وقهراً ، وترك بها نجم الدين أيوب دزداراً ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها يبذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى ما بذل ، وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيه وصار أصحابه (٣٤) في طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسائة ، سار أتاك الشهيد رضي الله عنه ، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقمامستهم وكندودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقيهم بالقرب من حصن بارين (٣٥) - وهو المسمى حينئذ بعرين - وهو للفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الاوغاد ، ورتب أطلابه ، وحرص أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا

الرياح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمى الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرؤوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتد الزمام ، وعظم الزحام ، وأبهرت مترعة كؤوس الحمام ، وبطل العامل(٣٦) وعمل الحسام ، فمن ضربة تقط ، وأخرى تقد ، وثارت عجاجة كادت تحجب الشمس ، وخفت الاصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله في سالف الدهور إلا ما يحكي عن ليلة الهرير(٣٧) ، ونصر الله المسلمين نصرا عزيزا ، وأحلهم من عارفته محلا حريزا ، وأجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به ، لأنه كان من أقرب حصونهم ، وسلموا عدتهم وعتادهم ، وكراهم وأزوادهم ، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريح بحد الصفاح ، ونصول السهام والرمح ، (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣٨))

ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره ، فحين نازله طاف به وقايله ، فرأى حصنا محلقا في الهواء ، مقارنا هامة الجوزاء ، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سموا ، وقد تشمخ بأذفه عن أن يرام ، ونأى بجانبه عن أن يضام ، فلا ترمقه الابصار إلا عادت حسيرة ، ولا تؤمه الطيور إلا أضحت أجنحتها مهيضة كسيرة ، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم ، وكهولهم وشبانهم ، واثقين بحصانته ، معتزين بعلو مكانه ومكانته ، متيقنين أن الحوادث لا تنالهم وهم به معتصمون ، وأن الأيام لا تنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون ، وقد وعدهم الشيطان النجاة (ولات حين مناص) (٣٩) ، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص ، (يعدم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (٤٠) ، وأنى يكون ذلك وقد أهدت بهم الأسد في عرينها ، الذابة عن بين الله تعالى وبينها ، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه ، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم ، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم ، علم أنه لا ينال بالتواني ،

ولا يبلغ قتله بسير السواني ، فأعد واستعد ، وشمر في قتاله عن ساق الجد ، ونازله بعزم أعظم منه ، وقوة لاتعجز عنه ، وحصره وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر ، وبياض العين بسواد البصر . ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق ، وتابع الزحف إليهم ووالى القتال عليهم ، وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق حتى كادت تحجب الهواء ، وتحول بينهم وبين السماء ، وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقه المتألق ، ووقع الاحجار رعدة المتبعق ، إلا أنه سحاب يمطر المنايا ، وينبت الحدوف والرزايا ، فحينئذ استخذي الحصن وانخذل ، واستسلم لصولة هذا الهمام البطل ، وألقى إلى الاستسلام بيده ، ولم يذفعه حصانته وكثرة عدده وعدده ، كما قال فيه بعضهم :

بادي المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان
أغضى كمستمع الهوان تغيبت
أنصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من افترسه الغضنفر ، ولانقيصة على من أذعن لصولة الموت الاحمر ، فما كل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد ، ولما عاين من به الهلاك راسلوا في طلب الامان ليسلموا ، وسألوا في حقن دمائهم ليسدسملوا ، وهو لا يصغى الى مقالتهم ، ولا يسمع رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهرا ليمالك بهم سائر بلادهم ، ويريح المسلمين بعد هذه الوقعة من قراهم وجلادهم . فبينما هم كذلك ، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ، المسلمين من الهلكة ، قد ساروا الى بلاد الفرنج والروم في البحر يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما فيه ملوكهم وقمامصتهم من الحصر وأكنادهم ، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدوا ، فحينئذ جد في الحصار وأذكى العيون ، وعمل على التضييق ، على من بالقلعة ومنع كل شيء عنهم حتى الاخبار ، وأقبلت الامداد من سائر انواع النصرانية إلى

الساحل من كل حذب يندسلون ، وإلى تلبية من به من إخوانهم يهرعون .

هذا ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين ما سور وهالك ، فأعادوا لمراسلته في طلب الامان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الامداد إلى الساحل واجتماعهم على من به من أهله فلما أجابهم إلى الامان وتسليم الحصن منهم سلموه وهم لا يصدقون بالنجاة ، وساروا عن الحصن يوما ، فلقيتهم امداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلما موهم ووبخوهم وعذفوهم ، وقالوا : عجزتم عن حفظه يوما أو يومين .

فحلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الان ، فلما عميت الاخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقتنا دماءنا بتسليم الحصن وافتدينا به ماوراءه . وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد - رضي الله عنه - هذا الضر العظيم .

وفي مدة مقامه على حصار بارين ، سير جندا إلى المعرة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

ذكر حصار الروم والافرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج الى الشام لازالة الشهيد عن حصار بارين ومن بها من ملوك الفرنج ورأوا الامر قد فات ، لم يروا أن يخلو سفرتهم من أثر يؤثرونه في حماية بينهم ويرجعوا بخفي

حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته ، لعلهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونزلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فأنحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها ، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري الى السلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر . فحكى لي والدي عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد لما أرسلني : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فاذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأبیت الرسالة ، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر ، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء ، وكتب الشهيد متصلة الى يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلانا - وهو فقيه وكان يذوب عنه في القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدي - قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، وإسلاماه ، وابن محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه والقى عمامته عن راسه وصاح ، وتبعه أولئك الذفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع الا من قام يبكي ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم الى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر قاطبة عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الامر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال : ما الخبر . فقيل :

إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة . فقال :
أحضروا ابن الشهر زوري . قال : فحضرت عنده وانا خائف منه ،
إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق ، فلما دخلت (عليه)
قال : يا قاضي ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفا
من القتل والشرك ، ولا شك أن السلطان ما يعلم بينه وبين العدو ،
إنما بينكم نحو اسبوع ، وأن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات
وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه
حتى جعلته كأنه ينظر إليهم . فقال : اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من
العساكر ماشئت وسر بهم والامداد تلحقك . قال : فخرجت إلى
العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا
وتفرقوا ، وانتخبت من عسكره عشرين الف فارس . وكتبت إلى
الشهيد أعرفه الخبر ، وأنه لم يبق غير المسير ، واجدد استئذانه في
ذلك . فامر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر الى
الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، واذا قد وصل نجاب
من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم
ينالوا منها غرضاً ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ومخاطبة
السلطان في إقامتهم . فلما خوطب السلطان في ذلك ، أصر على إنفاذ
العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها منهم وإزاحتهم
عنها ، وكان قصده بذلك ان تطفأ عساكره البلاد بهذه الحجة
فيملكها . قال : فلم أزل اتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت
العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد . فأنظر إلى هذا
الرجل الذي هو خير من عشرة الآف فارس ، رحم الله الشهيد ،
فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل ،
يرغبهم ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لي والذي ،
قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة مذك ما
يزيد على عشرة الآف دينار أميريه ، وغيره يقنع مذك بخمسائة
دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال
الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا
واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة الف دينار ، وكان كما قال
رضي الله عنه .

ذكر ملك الشعباني وبناء العمادية ببلد الهكارية

في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة سار اتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الاكراد وقد اكثروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر كان قد ملك كثيرا من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها اتابك الشهيد حصر قلعة الشعباني - وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها - فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمادية (٤١) عوضا عنها . وكانت هذه العمادية حصنا كبيرا عظيما ، يقل في حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الاكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التي لهم ، قال : اذا عجز الاكراد عن هذا الحصن فاننا لا أعجز عنه ، فامر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذا امر ، فبناه وسماه العمادية ، نسبة إلى لقبه عماد الدين .

وفيهما ايضا خطب لاتابك الشهيد بأمد ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له ، فان أجاب وإلا قصدها وحصرها ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا في طاعته .

وفيهما ايضا ملك الشهيد مدينة حديثة وعانة (٤٢) .

ذكر الودشة بين السلطان مسعود وأتابك الشهيد رضی الله عنهما

قال كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة اليه ، لا يزال الأمراء الأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين ، وقد تقدم ذكر بعض ذلك ، وكان كلما

انفتق عليه فتق نسبه الى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلمه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر ، وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك ، فلما كان هذه السنة - وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر وأظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فتددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان ، وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنجة وتمكن العدو وقربه من البلاد التي بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها ، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل ، إنه قيل له أن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فانها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوا ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقي وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمهده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من العدو عدة حصون وولايات ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الاسلام به ، ومن الأسباب المانعة له أيضا ، أن الشهيد رحمه الله كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضا ، فهرب سيف الدين وجاء إلى الموصل ، فلم يتمكن نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير إلى والده فمنعه أيضا ، وقال له : ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله ، فأرسل إليه فأعاد جوابه : إنني لا أريدك مهما كان السلطان ساخط عليك وألزمه بالعود ، وأعاد معه رسول إلى السلطان

يقول له : إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن فلم اجتمع به ورددته الى بابك ، فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا وأجاب الى ماأراد الشهيد ، ولما استقر المال حمل منه عشرين ألف دينار ، أكثرها أجناس وعروض ، ثم ان الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا عليه ، فاضطر الى مداراة الشهيد وأطلق له الباقي استمالة له واستصلاحا لقلبه .

ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد الى ديار بكر قاصدا فتحها ومحاصرا لها ، ففتح عدة بلاد ، منها : مدينة طنزة ، واسعد وملك مدينة المعين الذي يعمل منه النحاس من أرمينية ومدينة حيزان وملك ايضا حصن الزوق وحصن فطليس ، وحصن باتاسا، وحصن ذي القرنين .

وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع ، ورتب أمور الجميع ، وترك فيها من يفظها إذا سار عنها وقصد مدينة آمد ، ومدينة حاني فحصرهما وملك مدينة حاني فدوخ البلاد ، وأقام على آمد محاصرا لها ، وقصد استطلاع حال الرها على ماذكره إن شاء الله تعالى في :

ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

وفي جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفرنج ، وكانت لجوسلين عاتيقهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد اذعن له بالنهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة ، وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما ، وأعادها الى

- ٦٤٣٣ -

حكم الاسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الايمان ، وهذه الرها هي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية (ثم رومية) والقسطنطينية ، والرها. وكان هذا فتح الفتوح حقا ، واشبهها ببدر صدقا ، ومن شاهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصره الطائي (٤٤) لعلم إنه أولى بقوله :
السيف أصدق أنباء من الكتب

لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم اليها جسيم ، إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها ، وانضاف اليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين والموزر والقرادي وسن ابن عطير وغير ذلك. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ونصيبين ورأس عين والرقعة وأما حران فكانت في الخزي ، كل يوم قد صبحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته ان يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الاسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضا ، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضا مادام بها جوسلين وفرسانه ، وجذوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصرا لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه فعدل الى أعمال الحيل والخداع ، إذ كان أنجع في هذه الحادثة من المصاع .

والرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثاني (٤٥)

فعدل عن قصدها الى ماجاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين ، كحاني وجبل جور وأمد على ماتقدم ذكره فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو يسر حسوا في ارتغاء (٤٦) فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من أساده ، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده ، فلما رأى

جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لا فراغ له إليه ، وأنه لا يمكنه الاقدام عليه ، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله فأنت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظه وحاميه ، فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد في المسير وتهدد لمن عن صحبتته تأخر ، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيال الصائر الى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب ، فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم واختلط الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا (« لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن ممن الخاسرين (٤٧) ») فأبى الله إلا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، وجزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، ونكست لشدة هيبتهم رؤوسهم ، ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعديده ، وبمواكبه المنصورة ، وجموعه المحشورة ، وبذوده المنشورة وكما قال فيه :

بجيش جاش بالفرسان حتى

ظننا بحرا من سلاح

والسنة من العذبات حمر

تخاطبنا بأفواه الرياح

وأرع جيشه ليل بهيم

وغرته عمود للصباح

صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفاح

وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا الجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض
تزلزل والنهار بسواد الليل يسربل ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم
صاثرون إلى البوار ، يتهافون إلى القتال تهافت الفراش في
النار ، وأخذا بقول (من) يقول :

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة
والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن ، ليسلموه سليما
من إخراب أسواره ، وإخلاء دياره ، وضنا منه على مثله ان يصبح
خاويا على عرشه ، وأن يلتحق سماؤه بفرشه ، فأبوا قبول
الأمان ، وامتنعوا من الأذعان ، فاستخار الله تعالى في
قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ونصب المجانيق وقدم النقايبين ، وألح
على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزون عنه
ويستنقذونه منه ، وبلغ الخبر الى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا
وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا
على السرعة خوف الفوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر الى
شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل إليها ، ولم
يزل (الشهيد) يزحف إليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقايبون
الى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عدوة
وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا ، وشرا ، فلمما ملكها
استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها
ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل

وأسير ، وجريح وكسير ، وملا الناس أيديهم من النهب والسبي ، ومن كل مال نفيس و غلام رائق وبكر كالطبي عاتق ، وأصابهم من النكال ما هو لهم عتيد (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد (٤٨)) ثم أنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، وأخلاه من أهله ، غير مستحسن من مثله ، فأمر باعادة ماأخذ منه من أثاث ومال ، وسبي ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامرا بعد أن كان داثرا ، وأهلا وأمنا بعد أن كان للذئاب والخاصم (٤٩) مسكنا ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ماكان بيد الفرنج في هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف أمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدي الايمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون ادبارهم ، ويوحشون منهم بيارهم ، والكفرة يجدون في الهرب ، خوف العطب وكلهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادي : (جاء الحق وزهق الباطل (٥٠)) وألقى الاسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض (٥١))

فهي لهم الى يوم العرض وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلات به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الأبرار والأصفياء.حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله ابن علي بن مهـران الفقيه الشافعي ـ وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة ـ ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح ما لم يروه

أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض اخواننا ، أن أتاك
زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ، ثم
قال : ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم ، وبقي يردد هذا القول
مرارا ، فضببطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ، ثم إن نفرا من الأجناد
حضروا عند الشيخ ، وقالوا : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا
بالفتح ، وهو يذكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا .

وحكى لي أيضا بعض العلماء بالأخبار والأنساب - وهو أعلم
من رأيت بها - قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت
الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين
ذكر اسمه وأدسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله
ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت
الذي فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى
إفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو
جالس ، وعنده هذا العالم المغربي ، وقد نعس وهو شبه
النائم ، فأيقظه الملك وقال له : يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين
كيت كيت ، أين كان محمد عن نصرهم ؟ فقال : كان قد حضر فتح
الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك : لاتضحكوا ،
فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا على الملك فلم يَمْض غير
قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأذساهم شدة هذا
الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية .

وحكى لي أيضا غير واحد أثق به : أن رجلا من
الصالحين ، قال : رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن
حال ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر
لي ، فقلت : بماذا ؟ قال : بفتح الرها .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة ألبيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها ، والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات سار الى قلعة ألبيرة ، وهو حصن حصين مـسـطل على الفـسـرات ، وهو لـجـوسـلين أيضا فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوحهم ، وقطع عنهم الميرة حتى اشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج الى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين عسكريا ، فسلمها الفرنج اليهم ، خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيأخذها .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك ألب ارسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسائة ، قتل نصير الدين جقر بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية ، وكان سبب قتله ، ان الملك ألب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن البلاد التي بيده ، إنما هي للملك ألب ارسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان اذا ارسل رسولا ، أو اجاب عن رسالة ، فإنما يقول ، قال : الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك ، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين - وهو ينزل اليه كل يوم يخدمه (ويقف) عنده ساعة ثم يعود - فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلته

ملك الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك . فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحا ، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته ، وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا منهم ان أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا . فإن أصحابه وأصحاب (أتابك) الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دور الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة ، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء ، وكان من جملة من حضر ، القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فدخل إلى السلطان وخذعه حتى أصعبه إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها ليملكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد ، فلما صعد إلى القلعة سجدوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن جأشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جناحه حتى أقام بها الذواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين علي قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل أتابك الشهيد ، شرف الدين ابن اخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا ، وقال له : كل من هناك غلمانكم ، وتقدم إليه بما يفعل ، فسار حتى وصل إلى الموصل ، وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، أغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده في حفظها ، فلما وصل ابن اخت نصير الدين ، أرسل إليه النقيب يقول له : أرسل إلي منشور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته اننت لك في الدخول ومعك من يخدمك حسب ، ثم أرسل أنا إلى أتابك من أثق إليه أستأننه في تسليم الأمر اليك ، فإذا أنن فعلت ، وإن لم يأنن أخرجتك منها ، فترددت الرسل بينهما حتى أنن له في دخول القلعة

على القاعدة المذكورة ، فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غبرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذ قد انكشفت عن زين الدين علي (ابن بكتكين) (٥٢) قد جاء مجدا ليكون نائبا في القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين - وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه - فوصل الموصل في تلك الحال ، فقال له النقيب حسن مثل قوله لشرف الدين ابن اخت نصير الدين ، فأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة في نفر يسير ، وأرسل النقيب إلى الشهيد من يثق إليه يستأذنه ، فأمره بتسليم القلعة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين وسهل الأمر . فأطمأن الناس وأمدوا وازدادت البلاد معه عمارة .

حصر حصن فذك

هذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشوية إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها ، فلما كان سنة أربعين وخمسمائة ، تقدم أتابك إلى زين الدين علي بإرسال عسكر إليه يحصره ، فسير خلقا كثيرا من الفرسان والرجالة فحصره ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضيقوا على أهله ومنعواهم الميرة وهم صابرون ، فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم من الضر ، وكان لأصحابه معه عدة حصون أخذها منهم الشهيد ، كالهيثم ، وجديدة نصيبين ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان (٥٣) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال: كانت هذه قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه الى الامير سالم بن مالك العقيلي على ما ذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده ويد اولاده إلى هذه السنة - وهي سنة احدى وأربعين وخمسمائة - فسار الشهيد إليها فحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فذك أن لا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره - وإن قل - للحزم الذي عنده والاحتياط ، وأقام عليها يحصرها بنفسه * ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ما حكى لي والذي قال : أرسل الشهيد الامير حسان إلى صاحب القلعة لودة بينهما في معنى تسليمها اليه ، وقال له : تضمن له عني الاقطاع الوافر والعطاء الكثير ، فإن أجاب إلى التسليم والا فقل له : والله لأقيم من محاصرك إلى أن أملكها عنوة ، ثم لأبقي عليك ، ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم اليه ، فامتنع ، فقال له فهو يقول لك ، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، وما الذي يمنعك مني فقال : قل له ، يمنعني منه الذي منعك يا حسان من الامير بك ، فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكنتم عنه هذا ، فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها

قال وكانت قصة حسان مع بك ، ان حسان كان صاحب منبج فحصره بك وهو ابن اخي ايلغازي بن ارتق - وضيق عليه ، فبينما هو في بعض الأيام يقاتله ، اذ جاءه سهم لا يعرف من اين جاء ، فقتله وخلص حسان منه .

ذكر قتل الشهيد زكي رضي الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتالها ، فلم يزل

كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هونائم
دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه وهربوا من
ليلتهم الى القلعة (ولم يشعر اصحابه بقتله ، فلما سعد اولئك الذفر
الى القلعة) (٥٤) صاح من بها الى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر
اصحابه اليه ، فأدركه اوائلهم وبه رمق

حدثني والذي عن بعض خواصه ، قال : ادركته وهو في
السياق ، فحين رأني ظن انى أريد قتله ، فأشار إلى يا صبيعه
السبابة ، فوقفت من هيبتة ، وقلت له: يا مولانا من فعل بك هذا
حتى اقتله ، فلم يقدر على الكلام ، وختتم الله بالشهادة
أعماله ، وفاظت (٥٥) منه نفسه وسكن رمسه ، وأصبح معدوما
كأن لم يغن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلك ، ولم
يغن عنه اصحابه وعساكره ، ولا حماة أمواله ودساكره ، ولا آخر
الأجل ممالكيه وأجناده ، ولا زحزح عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما
قال فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فاعجب لمن قاد الجيوش ونفسه
قسمان بين الكر والاقدام

يلقى الكتائب مفردا بكتائب
من نفسه وليوم يكدر حامى

لا يرعوي عن ان يقارع وحده
ألفا بأبيض صارم صمصام

يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه
وبرأيه وبعزمه المقدام
حتى اذا الأجل انقضى مستكملا
ماخط في الألواح بالأقلام

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
ان الحمام سيبتلى بحمام

وأضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلى عنه العبيد
والخول ، فأى بدر مكارم غرب ، وأي أسد افترس ، ولم ينجح قلة
حصن ولا صهوة فرس ، فكم أتعب نفسه لتمهيد الملك
وسياسته ، وكم أذابها في حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك ما
أراد ، واستكمل في سعة الملك وشدة الهيبة وزاد ، وهانت عليه
المصاعب ، وزالت المتاعب ، واستكانت لصلوته القروم ، وخضعت
لهيبته الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث
والقدم ، ومهلك العرب والعجم ، فأخذ من العالم سره
وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه ، وزال عنه سلطانه ، وبعد
عنه حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلانه ، وأخذه من جميع ما
يملك وحيدا ، وجعله فريدا ، واصاره بعد القهر للخلائق
مقهورا ، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا ، رهين جدث
لا يذفعه الا ما قدم ، ولا يقبل من ساكنه فيه الندم ، وقد طويت
صحيفة عمله ، ونشرت جريدة أجره ، ونسخت آية عمره ، وبليت
سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة الهباء ، ولا سطرت
حرب الالاء ، ولو نظرت فتكاته لأنسيت البراض والجفاف ، أو عد
صرعى سيفه لكاثرت هلكى الجفاف (٥٦) وحين اخترمته
المنية ، وخانته الأمنية ، اضحى الاسلام لفقد ناصره عبوسا
ترحا ، والكفر لعدم خازله جنلا مرحا ، وما علما ان لهما من الملوك
أبنائه جابرا وكاسرا ، ومؤيدا وقاهرا ، بل من يربو نصره للتوحيد
عليه ، ويزيد في هدم منار التثليث وتعجل الثار اليه :

زاد على ما قام أبأوه

به وقد شاد الذي أثلوه

أقصر أهل العصر عن شأوه

حسرى وطال الكل اذ طاولوه

وسيرد من فتوحهم وجهادهم ما يرقع هذا الخرق ، ويجبر هذا
الوهن .

ولما قتل دُفن بصـفين (٥٧) عند أصحاب أمير المؤمنين عليه
السلام . ولقد بلغني انه اجتاز بهاوزار مشاهدا ثم قال : وددت
أنى شهدت صـفين بعسـكري مع أمير المؤمنين علي عليه
السلام ، حتى كنت اريه القتال الذي يعجز اصحابه عنه ، ولكل
امرئ ما نوى

فإن والذي حكى لي ، قال : كان حسن الصورة أسمر
اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل
البائن ، قال : وأشبه من رأيت به ، حفيده السعيد عز الدين أتاك
مسعود بن مودود بن زنكي ، إلا أن الشهيد كان أتم قاما
منه ، وخلف من الأولاد : سيف الدين غازي - وهو الذي ولي الملك
بعده - ونور الدين محمود الملك العادل ، وقطب الدين مودود أبو
الملك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير ميران ، فاندقرض عقب
سيف الدين من الذكور والاناث ، وعقب نور الدين من الذكور ، ولم
يبق الملك الا في عقب قطب الدين ، وخلف الشهيد أيضا بنتا ، ولقد
أنجب رحمه الله ، فإن اولاده الملوك لم يكن مثلهم. وسنذكر من
اخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضي الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزمًا وضبطًا
للأمور ، كانت رعيته في امن شامل لعجز القوي عن التعدي على
الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وانصافه وشجاعته وغير
ذلك ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاع
به ، وان من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتيته من
ذلك ، وحينئذ تقول : كم ترك الأول للآخر .

فمن ذلك انصافه بين القوي والضعيف . حدثني والذي رضي الله عنه ، قال : قدم الشهيد - قدس الله روحه - إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين - وكان الزمان شتاء - فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي - وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوي الرأي عنده - فدخل الديبسي البلد ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها . واستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفا والديبسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتاك الخبر ، نظر إلى الديبسي نظراً مغضباً ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقري ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر ب نصبها خارج البلد .

ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم يذقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرتة جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الاملاك ويقول : مهما البلاد لنا فاي حاجة بكم إلى الاملاك ، فإن الاقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الاملاك تذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . رحمه الله ورضي الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لاخلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدي المتطاولة إلى اهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لي والذي قال : رأيت الموصل التي هي أم البلاد في اول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركماني ، وهو قريب من الطبالين ، وكان الجامع العتيق أيضاً بلا

عمارة البتة . وكانت جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لا يقدرّون على المشي الى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الامير ناصر الدين كوري بن جكرمش ، فانه طلب من الشهيد أن ياذن له ليبنى دارا قريبا من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الاولى ، وهي اليوم مدرسة وقفها أم الملك الصالح ، ثم بنى بعد ذلك داره الاخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذي ذكرناه عن خراب البلد كثيرا جدا ، فلما طالت الايام الشهيدية ، وحمل البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الاقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فقصدته الناس واتخذوا بلاده دارا ، فانه من أكرم ارتبط . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دورا . وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة في علو سور الموصل فزيد فيه ما يقارب مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا في السور . وأمر أيضا بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل اولا بغير سور ، فأول من عمل لها سورا شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولم يعمل له فصيلا ولا خندقا ، وكان قليل العلو . فلما ملكها جكرمش بنى فصيلها وحفر لها خندقا وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسائة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين ، فهذا السور ، وهذا الخندق هو على الحال التي عملت في الايام الشهيدية . وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب .

قال المؤرخ : وكانت الموصل اقل بلاد الله فاكهة ، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد ، عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة ، فالرمان يبقسى إلى ان يدرك العتيق

الجديد ، وكذلك الكمثري ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجيد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف وما يجري لاصحابها حتى في خلواتهم ، ولاسيما دركاه السلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدي رحمه الله : وكان مع اشتغاله بالامور الكليات من أمور الدولة لايهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا . قال : فمن ذلك ، أنني وصلت الى عسكريه بقلعة جعبر قبل قتله بأيام ، وقصدت خيام جمال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلني إليه ، فبينما أنا عنده ، وهو يسألني عن طريقي ، وإذ قد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاما لا أعلمه . فقال لي جمال الدين : متى وصلت ؟ فقلت : الساعة . فقال : هذا عجب تجيء الساعة ويسمع أتابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلي ، وقد أرسل يقول : سله عن فذك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل اليهم من الجامكيات والسلاح وجميع الأحوال . قال : فحدثته بجلية الحال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ، إن كنت تعلم أن هناك نقصا في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرفنا حتى نزيله ونفعل ما يجب ؟ فقلت : ليس هناك الا ما يحب المولى وزدته شرحا ، فانظر الى هذه الهمة ، وإلا فاي محل لفذك في سعة مملكته الطويلة العريضة .

قال : وأصغر من هذا أنه بلغه أن جماعة من فلاحي مدينة

الموصل رحلوا الى بلد ماردين ، فأرسل إلى حسام الدين يطلب منه أن يعيدهم ، فرد الجواب : إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم ، ونأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم انتم مثل فعلنا لم يفارقوكم . فقال الشهيد لرسوله : قل لصاحبك ، إذا أخذت أنت من كل مائة سهما واحدا كان كثيرا لك ، لأنك مشغول بلذتك في رأس ماردين . وأما أنا فاذا أخذت الذلثين كان قليلا ، لما أنا بصدده من قصد الاعداء والجهاد ، ولولا لطي لطل عليك أن تشرب الماء أمنا في ماردين ، ولكان الفرنج ملكوها ، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخذت كل فلاح في بلد ماردين إلى بلد الموصل ، فأعادهم . فهذا مالا مزيد عليه في معرفة أحوال المملكة .

قال : ومن جملة رأيه الحسن ، أنه كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ، فلا يرفع أحدا فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه ، ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه ، فمن ذلك أنه كان له طشت دار يسمى سبلتوه فسلم إليه يوما خشكناذكة (٥٨) وقال : إحفظ هذه ، فبقي نحو سنة لا تفارقه الخشكناذكة خوفا أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك قال له : أين تلك الخشكناذكة . فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : مثلك يذبحي أن يكون مستحفظا لحصن ، وأمر له بدز دارية قلعة كواشي ، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك .

ومن آرائه : أنه كان لا يمكن أحدا خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها . فمن ذلك أنه (٥٩) هرب منه امير كبير يقال أبو بكر - وكان مقدم البكجية ، وهو مقطوع نصيبين - فهرب منه الى حسام الدين تمرتاش بماردين ، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه ، فنازل ماردين وحصرها ، فلما عجز حسام الدين عن منعه سيره الى دركاه السلطان مسعود ، فلما بلغ

الشهيد الخبير أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم اليه فسجنه وكان آخر العهد به .

ومن صائب الرأي الجيد ما فعله من نقل طائفة من التركمان الايوانية مع الامير اليارق الى الشام واسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويرادونهم ، وأخذوا كثيرا من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق ، أو حيل بيني وبينه ، استعين على سد الخرق بالمال الذي في غيره .

ومن ذلك شجاعته وهيبته الهيوبة

وأما شجاعته واقdamه فإليه النهاية ، وبه كان يضرب المثل . أما قبل ان يملك فمشاهده معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج بطبرية ووصوله الى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها ايضا حملته على اصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده في جبلها الى سورها ، ومقامه هناك مشهور إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا ، وأما بعد أن ملك ، فمن عرف حاله واحاطة الاعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره واستيلائه مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر والاقدام . والذي حكى لي والذي من ذلك ، قال : كان الشهيد - قدس الله روحه - قد أحرق الاعداء بولايته والمنازعون له ، فمنهم امير المؤمنين المسترشد بالله ، فقد كان الحال بينهما ظاهرا ، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الموصل وحصرها ، ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد

جاور أعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم
عساكر ، وأشدهم كراهة للشهيد ، ثم الى جانب أعمال
أرمينية - وهي لبنت سكرمان - ولهم العساكر الكثيرة والبلاد
الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان ، والمعدن
وغيرهما . ثم الى جانب بيت سكرمان ، ركن الدولة داود بن سكرمان
ابن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين
تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيرا من
ولايته ، منها : جزيرة ابن عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من
بلادهما كثيرا ، ثم الى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب
دمشق ، قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ،
وحماه ، وحمص ، وبعلبك ، وهم أشد ما كانوا قوة وأكثر جمعا .
ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب
دمشق قد جاوروه بها ، ومع هذا فهو يأخذ أيضا من بلاده ، فكان
لايستقر بل يغزو كلا منهم في عقرباره - ما عدا السلطان
مسعود - فإنه كان لا يباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الاطراف
على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان اليه ، وطلب منه أن
يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه
ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر الى
هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير . ولو لم يكن في زمانه غير ركن
الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت في
التركمان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضا مع هذا
شجاعا مقداما لاتضره الهزائم شيئا ، بل يفارق المعركة مهزوما ،
ثم يعاود الحرب بعد ايام .

وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ،
وملكوا بلادهم واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم
والهبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفا منهم ، فلما ملك
البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير فتح
الرها لكان عظيما . وحكي لي عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى
الرها حين فتحها ، أحضر طعاما وقال لأصحابه : لايتقدم إلي ،

ولا ياكل معي الا من يحمل غدا معي على الرها ، فلم يتقدم اليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فمنعه أصحابه ، فقال : اتركوه فإنني اتوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب أول الناس ومقدمها الى سور الرها .

واما صدقاته رضي الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميرى ظاهرة ، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرا مع من يثق إليه . حكى لي : انه ركب يوما فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه اسمه بليمان ، فقال له كلاما لم يفهمه بليمان ولم يتجاسر على ان يستفهم منه ، فعاد عنه الى بيته فودع أهله عازما على الهرب . فقالت له زوجته : ما نذ بك ، وما الذي حملك على هذا الهرب ؟ فذكر لها الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فأذكر له قصتك وأفعل ما يأمرك به ، فقال : أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك ، فلم تزل زوجته تراجعته وتقوي عزمه على القول لنصير الدين فرجع الى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير وأحملها إليه فهي التي أراد . فقال بليمان : الله الله في دمي ونفسي . فقال : لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال : أمعك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له : إنه يتصدق كل يوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلي يأخذه من الليل . وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الارض وأرسلك إلي ، فعلمت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وفطنته ، والى هذه الهبة الشديدة التي منعت ذلك الامير عن المراجعة ، وبها امتنع القوي عن الضعيف

وحكى لي والدي من شدة هيئته ما هو اشد من هذا ، قال والدي : خرج يوما الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحركوه فوجدوه ميتا .

واما قوة عزمه ، وقلة تلونه ، وعلو همته

قال لي والدي رحمه الله : كان الشهيد رضي الله عنه قليل التلون والتثقل ، بطيء الدلل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من اصحابه مذ ملك إلى أن قتل ، إلا بئذ يوجب التغير ، والأمرء والمقدمون الذين كانوا معه أولا ، هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له . قال والدي : كنت أرى من جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الوزير في الايام الشهيديّة من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحاقة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوما : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الايام الشهيديّة ، ما أرى منها الآن شيئا ؟ فقال لي : الآن ما عندي كفاية ؟ فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية ان يسلك الانسان في كل زمان ما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولا يتلون بأقوال أصحابه فحفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذي أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية في الركاب لهم الجامكيات

الوافرة ، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة ، ففي بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيرا ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئا ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له ، فقال لهم : اشكوتم إلى الديوان ؟ قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب ؟ قالوا : لا . قال : فلاي شيء أعطي الديوان مائة ألف دينار ، وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتم حالكم إلى الديوان ، فإن اهتملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن أهمل أمركم كنتم شكوتم الجميع إلي حتى كنت أعاقبهم على أهمالكم ، وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتأديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصلاح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندي النين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي ، وبهم من الحاجة إلى الذفقات في أسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عني ، وانكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا في الاجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجوه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للامور ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقيق ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأمره .

وكان ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجوقية لكثرة التجميل ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والذي : كان الانسان إذا قدم عسكريه لم يكن غريبا ، فإن كان جنديا اشتمل عليه الاجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد منزلة الديوان فراء من توفرهم عليه ، ونظرهم في مصالحه ما يكون كأنه في أهله . وان كان عالما ، فيقصد خيام القضاة بني الشهر زوري وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسبون اليه ويؤنسونه غربته فيعود أهلا ، وسبب ذلك

جمعية إنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية ، والاراء الصائبة ،
والانفس الايبة ، ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل
الجميل واصطناع المعروف .

واما غيرته

فكان الشهيد رحمه اله تعالى شديد الغيرة على الحرم ، ولاسيما
نساء الأجناد ، فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها ،
وكان يقول : أن جندي لا يفارقوني في اسفاري ، وما يقيمون عند
أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن .
فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب ، أنه كان قد أقام دزدارا بقلعة
الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطي ، وكان من
خواصه واقرب الناس اليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه عنه
أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيسيانى ان
يسير مجدا ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع
ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار
صلاح الدين مجدا ، فلم يشعر البربطي الا وقد وصل الى البلد ،
فخرج الى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له :
المولى أتاك يسلم عليك ، ويريد ان يعلي قدرك ويرفع منزلتك ،
ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك
مثل نصير الدين هاهنا ، فتجهز وتحذر مالك في الماء إلى الموصل
وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلا ولا كثيرا الا
نقله الى السفن ليحدرها الى الموصل في دجلة ، فحين فرغ من جميع
ذلك ، اخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به ، وأخذ جميع ماله لم
يعدم منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده احد على سلوك شيء من
افعاله ، فأعجب من حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر
من في دولته ، وأخفى أمره خوفا من جهل ذلك الدزدار ان يحمله على
العصيان ، أو على أمر يتعب في تلافيه . ثم انظر من صلاح الدين ،
كيف خدع ذلك المسكين باكرامه ووعد بالاعمال السنية حتى أخرج

بالشام لهذا السبب ، وأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويملك البلاد ولا يبقى لاولاد الشهيد شيء شرقي الفرات . وكان أحب الاشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضا ، لأنه لم يأمن منه . فلما أمر الملك بمسير صلاح الدين الى الشام سار ، وبقي جمال الدين وحده مع الملك ، فأخذه وقصد الرقة ، فحسن له جمال الدين الاشتغال بشرب الخمر والخلوة بالنساء ، وارسل اليه عدة جوار كن للشهيد ، وشيئا من المال يهبه المغنيات ، وهون عليه أمر ملك البلاد ، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها في يده فاشتغل الملك بذلك ، وأراد أن يعطي الامراء ، فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه ، وقال : لهم منك الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة . وشرع جمال الدين يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بن اتابك الشهيد واحدا بعد واحد ، وكل من يحلف يأمره بالمسير الى الموصل هاربا من الملك ، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام ، ثم سار الى ماسين (٦٠) ، فتركه بها عدة أيام أيضا ، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، وكان سيف الدين قد دخل الموصل فاستقر بها ، فقوي حينئذ جنان جمال الدين (ووصل هو والملك الى سنجار) (٦١) وارسل الى دزدارها وقال له : لاتسلم البلد ولا تمكن أحدا من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك . ففعل الدزدار ذلك . فقال جمال الدين للملك : المصلحة انا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج الى الخدمة وحينئذ تقبض عليه وتتسلم البلاد ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر ، فساروا الى مدينة بلد (٦٢) وعبر الملك دجلة من هناك ، فلما عبرها ، سار جمال الدين الى الموصل فدخلها ، وأرسل الامير عز الدين أبا بكر الديبسي في عسكر الى الملك ، وهو في نفر يسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين علي على ماكان إليه من ولاية الموصل ، وجعل جمال الدين وزيره ، وارسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف ، وأقره على البلاد وأرسل له الخلع . وكان هذا سيف الدين لازم

السلطان مسعود أيام أبيه سفرا وحضرا . وكان السلطان يحبه كثيرا ويأنس به وينشطه ، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكمال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدمه واحسانه ، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، فلقد قتل من قال : الناس ألف منهم كواحد ، وهو معذور فانه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين في الملك اطاعته جميع البلاد ، ماعدا ماكان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانيا

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجي - الذي كان صاحب الرها - في ولايته غربي الفرات في تل باشر وماجاورها ، فراسل أهل الرها - وكان عامتهم من الأرمن - ووأعدهم يوما يصل إليهم فيه ، فأجابوه الى ذلك ، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد في قتالهم ، فبلغ الخبر الى نور الدين - وهو حينئذ بحلب قد ملكها بعد قتل والده - فسار مجدا إليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها وفي هذه الدفعة نهب وخربت وخذت من أهلها ولم يبق منهم - إلا القليل . وكان من بالقلعة قد ارسلوا الى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد الى ولاية الموصل ، فلقي عز الدين أبا بكر الديبسي وقد سار الى الجزيرة ليتسلمها اقطاعا ، فسلك طريق البقعاء (٦٣) متصيذا ، فلقي القاصد فاخبره خبر الرها ، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصدا مسرعا ينهي إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين في السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر

فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحاً ثانياً ، وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجيبة

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من غنائمها إلى الامراء وغيرهم ما جرت به العادة . وكان زين الدين علي من جملة من أرسل إليه منها ، وفي جملة ما أرسل اليه عدة من الجواري فحملن الى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم ، فغاب عنهم قليلاً ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جري لي اليوم أعجوبة ، وهي أننا لما فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم ، وكان مهيباً مخوفاً ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفاً من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابني زنكي

لما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطان وتحليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه ، فلم يزل يراسله ويستميله ، وكلما طلب شيئاً أجابه إليه إستمالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل

الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء إلي ، كنت تخافني على نفسك ؟ والله لم يخطر ببالي ماتكره ، فلمن أريد البلاد ومع من اعيش ، وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع اخي وأحب الناس إلي ؟!

فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد الى حلب فتجهز ، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود ونزل بعسكره عنده ، وقال له : لا غرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقتنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه الى ان قضيا ماكانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله سيف الدين حتى رحلوا عنها

في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، خرج ملك الالمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الافرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عددا وأوسعهم بلادا ، وملكهم أكثرهم عددا وعددا ، وأن كان غير ملكهم اشرف منه عندهم واعظم محلا ، « والسيف اصدق أنباء من الكتب » . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبوق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وليس له من الامر شيء ، وإنما كان الأمر إلى معين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد وللعسكر ، وكان عاقلا خيرا بينا حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الاول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب منه ، وكان فيمن

خرج معهم ، الفقيه حجة الدين يوسف بن دوناس الافندلاوي المغربي ، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا ، خرج راجلا فرأه معين الدين فقصده وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ، فقال : قد بعث واشترى ، فلا نقيه ولا نستقيه يعني قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم) (٦٤) الآية . وتقدم وقاتل الافرنج حتى قتل رضي الله عنه عند النيرب شهيدا (٦٥) . وقوي أمر الفرنج وتقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين ، يستغيث ويستنجد ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعني كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فأنا إن جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا ، لا يسلم منا أحد لبعده بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن القاهم واقاتلهم ، فتسلم البلد الى من أثق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصر لنا على الفرنج إنني لا اخذ دمشق ، ولا اقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي ، فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج .

وارسل سيف الدين الى الفرنج الغرباء يتهدهم ، ويعلمهم انه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وارسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعهم من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطمعون في السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من اولئك الفرنج الخارجين الى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء بدمشق لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فانتهم تعلمون انكم لا تقدرتون على منعه عن البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الالمان عن دمشق ، فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا

بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده ،
وأنة ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم الى
الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل الفرنج الساحل وتسلموا حصن
بانياس من معين الدين ، وبقي حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه
نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو
القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ، قال : حكى لي بعض الأئمة
العلماء ، أنه رأى الفندلاوي في المنام ، فقال له أين أنت . قال : في
جنات عدن (على سرر متقابلين) . (٦٦) .

ذكر فتح نور الدين حصن العريمة

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر الى بعلبك ،
وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر
عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا فوصل إليهما حينئذ كتاب
القمص صاحب طرابلس ، يشير بقصد حصن العريمة وأخذه ممن
فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفدش صاحب طليطلة ،
خرج مع ملك الألمان الى الشام وتغلب على العريمة وأخذه من
القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي
ملك العريمة ، هو الذي غزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما
استولى هذا على العريمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في
قصده ، فسار إليه مجدين فصباحها ، وكتبها الى سيف الدين وهو
بحمص يستنجد به ويطلبان المدد ، فامدهما بعسكر جرار ، وجعل
مقدمه عز الدين أبا بكر الديبسي ، فحصروا الحصن وبه ابن
الفدش ، فامتنع به حماه ، فزحف المسلمون اليه ، وتقدم النقايون
الذين مع نور الدين نكبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، انعدوا
واستسلموا ، والقوا ما بأيديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل
من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفدش ، وأخربوا الحصن
وعادوا الى سيف الدين .